الجانبي الذي يفضي إلى العمارة التي يقطنان بها قرّرا الدّخولَ إلى شارع آخر قريب به سوبر ماركت تعوّدا على الشّراء منه. وما كادا يدخلان الشّارع ويبتعدان قليلاً عن الكورنيش حتّى سمعا ضجّة. كانت زمرة من الأطفال تطارد امرأة مخبولة وتقذفها بالأحجار من هلع وتقف فيتراجع الأطفال عنها لتجري فيتبعونها صارخين مهلّلين، بينما وقف عدد من الرّجال والنّساء في الشرفات ينهرون الأطفال الذين لا ينصاعون لهم. في نفس اللّحظة دخلت عربة بوليس «بوكس» الشّارع مسرعة تثير الغبار وتوقّفت فجأة أمام باب إحدى العمارات، ثمّ قفز من صندوقها الخلفي عددٌ من جنود الشّرطة، وقفز من جوار السّائق ضابطٌ شاب، واندفعوا جميعاً إلى داخل العمارة. توقّف الرّجال والنّساء عن الصّراخ في الأطفال، وتابعوا المشهد الغريب لعربة البوليس قبل أن يخرج الجنود والضّابط من العمارة يدفعون أمامهم ثلاث نساء عاريات ملفوفات في ملاءات مضطربة، وخلفهم أيضاً يدفع عدد آخر من الجنود بثلاث رجال عراة تماماً يسترون عوراتهم بأكفّهم. في تلك اللّحظات القصيرة كانت ثلاث عربات خاصّة قد دخلت إلى الشّارع وقفز من كلّ منها عددٌ من الرّجال والشّباب والنّساء حاولوا الفتك بالرّجال والنّساء العراة، لكن رجال الشّرطة منعوهم من ذلك، وقفز العراة إلى صندوق العربة الخلفي ومعهم رجال الشّرطة. وكانت الشرفات قد امتلأت بالنّاس يقذفون باللّعنات والبصقات. وكفّ الأطفال عن مطاردة المرأة المخبولة التي وقفت بعيداً تنظر إلى ما يجري بسعادة طفوليّة وعينين برّاقتين. وانطلقت سيّارة الشّرطة فجرى أصحاب السّيارات الخاصّة إلى سيّاراتهم ليتبعوها، لكن الأطفال كانوا قد سبقوهم في متابعتها وراحوا يقذفونها بالحجارة التي سبقت الجميع. وقالت زوجته:

ـ العجيب أنّي كنت قد نويت اليوم أن أنزل معك إلى الماء عند المغيب.

كان الهواء الحامل للرّمال يشتدّ، وازداد انصراف النّاس عن الشّاطئ. قال:

ـ يمكن أن نأكل الآن وننتظر، فقد يهدأ الحال.

مدّت يدها إلى حقيبة الطّعام. كان عدد من السّاندوتشات قد ابتلّ بالماء. قالت:

ـ لا مفرّ من العودة إلى الشّقة الآن.

كان يدرك أنّ الماء قد طال الطّعام ولا يدرك لِمَ طلب منها أن يأكلا. هل أراد أن تكتشف هي ذلك فتطلب العودة؟ على أيّ حال لم يعلّق. انشغل بمتابعة المرأة الجميلة الباكية التي لم تعد تمشي على الشّاطئ. رآها تمشي فوق اللّسان الصّخري الممتدّ طويلاً في البحر يفصله إلى منطقتين واسعتين للاستحمام. كانت وحدها هذه المرّة. رآها تجلس عند آخر نقطة فوق الصّخور. الموج يضرب في جوانب الصّخر العالية فيرتفع رذاذه ويطولها وينتشر حولها. لكنّها جلست غير مبالية بشيء تنظر إلى الأفق. ورأى، وهو يعود بعينيه عنها، الغطّاس النّوبيّ وقد وقف فوق السّلم الحديديّ ينزل الرّاية البيضاء ويرفع السّوداء ويطلق صفّارته بجنون لكلّ مَنْ في الماء. وفي لحظة ارتفع الموج أكثر وأصدر هديراً عالياً طال الصّف الأوّل للعدد القليل الباقي من المصطافين. كان ذلك الصّف هو الثّاني منذ قليل. الثّاني لم يقتل الأوّل حقّاً تلك اللّيلة، لكن الأوّل لم يقتل الثّاني أيضاً كما ظنّ بعد ذلك. الآن يدرك بوضوح أن شخصاً ثالثاً ظهر خارجاً من زقاق مظلم وقتل الاثنين معاً ثمّ عاد ليختفي في الزّقاق..

القاهرة

اليوم الأوّل

محمد نور الدين

ما إن اقتحمتُ باب المدرسة الابتدائية، في أوّل يوم من أيّام المدرسة الّتي كنت أسمع عنها بشغف من إخوتي الكبار ومن أصحابي الّذين يكبرونني سنّاً، حتّى أُخذتُ بهذا الاتّساع الهائل لفنائها! وبالرغم من أنّ أخي الأكبر كان يقبض على يدي الصّغيرة بحرص شديد كما أوصته أمّي في البيت، فإنّني بدأت أشعر بالضياع في خضمّ هذا العدد الكثيف من التّلاميذ بقاماتهم المتفاوتة. تذكّرت الأيام الممطرة العاصفة؛ كأنّ ساحة المدرسة مكانٌ شاسع أمطرت فيه السّماء أولاداً. وجدت نفسي بتلقائيّة أقبض على أصابع أخي بخوف واضطراب. ويبدو أنّه أحسّ بارتباكي وإحجامي عن التقدّم، فنظر إليّ مطمئناً ومشجعاً، وهمس في أذني بصوت دافئ: «المدرسة حلوة يا وليد..

تطلّعْ.. كلّ التّلاميذ مبسوطون.. هل ترى هذا الطّفل الصّغير كيف ينطّ بمرح وسعادة؟!.. هو مثلك في الصّف الأوّل الابتدائي.. أوّل مرّة يأتي إلى المدرسة..».

لم يكن الاتّساع وهذا العدد الضّخم من التّلاميذ هما وحدهما اللّذان أثارا مشاعر الفزع في نفسي، بل منظر أستاذ كان يصيح بغضب وسخرية. ملامحه متجهّمة ويلوّح بخيزرانة طويلة في يده: «اذهبوا جميعاً إلى وسط الفناء.. لا أحد منكم يقترب من مبنى إدارة المدرسة.. من لم يسرع سأضربه بالعصا..».

جذبني أخي بخوف وتوتّر بعيداً عن المعلّم، وأسرع مجرجراً إيّاي إلى عرض السّاحة.. بين لحظة وأخرى كنت أختلس

نهر الحيوان

رجاء عالم

دار الآداب

النّظرات برعب إلى الأستاذ، والخيزرانة المتراقصة في يده كالكلبة المسعورة. فاض الرّعب في أعماقي وتسلّل إلى مقلتي على شكل دموع أخذت تسيل فوق خدَّيَّ الطّازجين. كنت متأكّداً أنّ هذا المعلّم الّذي يمسك بالخيزرانة مهدّداً بها الجميع سينقضّ عليَّ حتماً بعد لحظات، ولابدّ أن يضربني على يديّ وفوق مؤخّرتي بعد أن يكلّف فرّاش المدرسة باحتضاني بقوّة كي لا أفلت من تحت العصا؛ تماماً مثلما كان يحكي لي أخي الأكبر وأصحابي الّذين التحقوا بالمدرسة قبلي بسنوات. كانوا يتحدّثون برعب عن «الأستاذ فرغلي مدرّس التربية الرّياضيّة» وكيف أنّه لا يرحم من يقع تحت يده من التّلاميذ، وأنّه مسؤول التّعذيب والضّرب والقتل بالمدرسة. لابدّ أن يكون هذا الأستاذ هو فرغلي بالذات.

رفعت عينيَّ الدّامعتين إلى أخي متوسّلاً: «أريد العودة إلى ماما في بيتنا..». ضحك أخي مربّتاً على ظهري: «لماذا أنت خائف هكذا؟» اختلستُ النّظرَ من جديد إلى الخيزرانة المتراقصة وسألته بذعر: «أليس هذا هو الأستاذ فرغلي؟!».. تضايقتُ من أخي إلى حدّ الثّورة عليه حين رأيته مستغرقاً في ضحك مفاجئ دون سبب، فصرخت فيه كالمستغيث: «عدْ بي إلى ماما حالاً، أرجوك يا أخي فهمي... أقبّل يدك..». تفاقم سخطي عليه عندما أهمل توسّلاتي. جذبني من جديد بعنف إلى عمق الفناء المدرسي وصاح في وجهي بأنفاس خشنة نضب منها كُلُّ أثر للعطف والحنان اللّذين كان قد أبداهما لي من قبل. تأجّجتْ أحاسيسُ الرّعب في نفسي. أدركتُ أنّ أخي فهمي هو الآخر قد استحال إلى فرغلي ولكن بدون خيزرانة. تملّكني توتّر قاتل، حين أدركت فجأة أنّ الجميع قد تآمروا عليَّ في وقت واحد، وأنّني وقعت في الفخّ بقدمي. أبي وأمّي وإخوتي وأصحابي وأقاربي وجيراني.. كلّهم.. كلّهم تآمروا عليَّ، أوهموني بأنّ المدرسة شيء جميل وطيّب، صدّقتهم جميعاً.. وها أنا أجد نفسي وسط غابة من الوحوش محاطة بسور شاهق وباب واحد يسمح بالدخول فقط، ولا يسمح لأحد بالخروج منه. أحسستُ بلسعات الخيزرانة المتراقصة في الهواء، وهي تسقط بقسوة على مؤخّرتي وسط طابور التّلاميذ، وجميع الأولاد يضحكون عليَّ، ومعهم أخي فهمي. لم أتمكّن من السّيطرة على فمي وهو ينفجر بأصوات توسّلات محمومة وصاخبة، للعودة بي إلى ماما. غاظني أكثر أنّ بقية أولاد المدرسة قد تنبّهوا لوجودي، فراحوا ينظرون إليَّ، ويقتربون مني بدهشة وفضول. ولم تؤدِّ توسّلاتي إلاّ إلى زيادة نبرة القسوة والسّخرية في صوت أخي الّذي بدأ يستشعر الحرج حين تجمّع كلّ التّلاميذ حولنا، كأنّهم يتجمّعون ببهجة حول الحاوي، فصرخ فيَّ: «كفاك بلاهة وقلّة أدب.. فضحتنا وسط المدرسة..». ولم يكتف أخي بالصراخ في وجهي، بل لكزني بشدّة في كتفي، وهو ما رفع حدّة صراخي وإصراري على العودة إلى حضن ماما.

ولم يقطع عليَّ صراخي هذا إلاّ صوتٌ أكثرُ منه حدّةً.. كان ذلك هو صوت جرس المدرسة الّذي سمعته لأوّل مرّة مستغرباً.. للحظات توقّفتُ عن البكاء والصّراخ وأخذت أتابع بقية التّلاميذ الّذين انفضُّوا عنّي فجأة ودون أن يأمرهم أحد! تعجّبت لأنّ كلّ واحد منهم وقف في مكان محدّد دون غيره. لكنّي عُدت للصراخ من جديد حينما تملّص أخي فهمي من يدي المرتجفة متجهاً إلى الوقوف في طابور مع تلاميذ في مثل قامته.. حاولتُ اللّحاقَ به.. لكنه بسرعة وخوف أعادني إلى مكان يقف فيه أطفالٌ في مثل قامتي القصيرة.. قال لي إنّه الصفّ الأوّل.. حاولتُ اللّحاق به من جديد، لكنّ الصّوت المرعب للمعلّم الّذي كان يمسك بالخيزرانة، حال دون ذلك.. توقّفتُ غارقاً في المكان الّذي حدّده أخي لي من قبل، وبكائي العاصف مازال يلفت نظر الجميع، وقد عقدت العزم على عدم المجيء إلى المدرسة مرّة أخرى، إذا ما نجّاني الله منها، وكتب لي عمراً جديداً.

انتبهتُ إلى أحد المعلمين يقترب مني مبتسماً، نظرت بوجل إلى يديه، فوجدتهما خاليتيْن من أي عصا.. اقترب مني أكثر وهو يبتسم بحنان وعطف.. لم أفزع منه وهو يمدّ كفّه المبسوطة إلى شعر رأسي يتحسّسه برفق.. اشتدّ ارتياحي عندما انحدرتْ أصابعه الحانية إلى كتفي وظهري وراح يربّت عليَّ بليـن قائلاً بحبّ حقيقي: «لقد صرت رجلاً كبيراً الآن، والتحقت بالمدرسة.. الرّجال لا يبكون.. يبدو عليك الأدب

والـذّكـاء.. لمـاذا تبكـي يـا حبيبـي؟!!.. المـدرسـة جميلـة.. وتعطي شيكولاته ونلعب فيها بالكرة..» وقبل أن ينهي كلامه كان قد أخرج يده الأخرى من جيب سترته، ومدّ أصابعه لي بقطعة شيكولاته في غلاف أحمر لامع جميل.. توقّفت عن البكاء بعد أن شدّني اللّون الأحمر اللاّمع.. تردّدت أوّل الأمر في مدّ يدي إليها.. لكن مع التّشجيع المتواصل والحاني من الأستاذ مددت يدي إليها وأخذتها منه.. لم أشأ أن أفضّ غلافها في الحال، فكّرت في الاحتفاظ بها؛ حتّى أعود بها إلى أمّي وأبي وأختي الصّغيرة رغدة. فكّرت في الزّعم بأنّني شاطر، وأنّ الأستاذ أعطاني هذه الشّيكولاته مكافأة.. قبل أن أستمرّ في التّفكير في بقية القصّة الّتي أدعيها، اصطحبني الأستاذ، ومعي بقية الأولاد الجدد، بعيداً عن المكان الّذي يقف فيه طابور الكبار والأستاذ فرغلي، وذهبنا إلى آخر السّاحة.. جعل يخرج من جيوبه العديد من قطع الشّيكولاته ويعطيها لمن يخبر باسمه وبعدد إخوته، وأخذ يسألنا بودّ وعطف عن أشياء بسيطة وسهلة.. وأعطاني قطعاً جديدة من الشّيكولاته وقرّرتُ أن أقسمها بيني وبين ماما وبابا وأختي رغدة، الّتي تحبّ الشّيكولاته أكثر مني. ولم يكتف الأستاذ بهذا، بل أخرج لنا من جيبه أيضاً الكثير من البالونات الملوّنة، أخذ ينفخها، ويربط فوهتها، ويطلقها لنا في الهواء طالباً منا الرّكضَ خلفها والإمساك بها.. أخذنا نتسابق خلفها متنافسين بجديّة كرجال كبار. وراقني جداً وجهُ المعلّم الباسم عندما راح يقهقه من كلّ قلبه، وتذكّرت أبي حينما يلاعبني في البيت.. أحسستُ بحبّ جارف لهذا الأستاذ، بقدر كراهيتي وخوفي من الأستاذ فرغلي.. بدأت أقترب منه أكثر وأكثر، وأدفع إليه بالبالونة بمرح، فيردّها إليّ..

في نهاية اليوم الدّراسي الأوّل، كنت قد قرّرتُ أن أواصل مجيئي إلى المدرسة: «لن أتخلّف عنها يوماً واحداً.. سأستيقظ مبكراً.. سأصحو قبل أن يصحو أخي فهمي.. سآتي قبله إلى هنا كي ألعب مع أستاذي هذا».. اقتربتُ منه أكثر، فنظر إليّ بفيض من سعادة تراق من عينيه على وجنتيه، وسألني بحنان بعد أن عرف اسمي: «ما رأيك يا وليد، هل المدرسة جميلة؟ وهل ستأتي كلّ يوم؟».

أجبته بعزم وصدق وأنا أتعلّق بأصابعه كأبي: «بالطبع يا أستاذ.. لكن ما اسم حضرتك، لكي أحكي لماما وبابا عنك؟..».

أجاب الأستاذ بحنانٍ غير عادي: «أنا الأستاذ فرغلي...».

الإمارات العربيّة

باب المراح

مصطفى الكيلاني

الحجارة المُكَدَّسَة هُناك حِذو آخر مَمَرٍّ إلى الذاكرة تَمْنَعُ الرؤية من الانتشار...

ـ هل نعود القهقرى؟

ريحُ ذَاكَ الخريف تكنس الأزقّة والسّطوحَ دون تَوَقُّف.. الأبواب العتبات النمل المُتَدَحْرِج قشورُ التّين الهنديّ رَوْثُ الأحمرة العرباتُ تَجُرُّهَا البغال أكداسُ الزيتون في حلم الشتاء المُنْقضي الأطفالُ يتصايحون قشورُ الرمّان الأزقّة سطوح المنازل المحاريث العتيقة البياض..

ـ كيف المرورُ إلى مَضْجَعِها؟

لَحْظَة الأمل تَصْعَد من النسيان ثمّ تختفي...

«باب المَرَاح» الرّحْبَةُ «القَصْر» الدكاكين بَرَاريدُ الشاي الممرّاتُ الملتوية إلى غابات الزيتون الأطفالُ الحُفَاة النساء يَحْملن «القِلال» والمَنازلُ البيضاءُ تَنْتَشِرُ على الرُّبى في أشكالٍ مُدَرَّجة تَتَوَسَّطُها المَئْذَنَة تَعْلُوهَا عتباتٌ قطنيّة كأنّها ظلالُ فراشات... ولادَاتٌ نُعُوشٌ تمرّ من «باب المراح» في كلّ يوم وجوهٌ تندفع كالسّيل إلى هناك القبورُ البياضُ الأعشابُ الطفيليّة جُثْمانٌ يُحْمَلُ ليُوضع في حفرة وآخر قريباً من يوم البارحة وتمْضي الأيّام اللّيالي الأعوام...

ـ كيف المرور إلى قبرها؟

تَمَّ ذلك في عام الجراد أو الجدب تَبَعاً لاختلاف الرّوايات.

تدافعوا في الأزقّة.. تعالت أصواتُهم وانتشَرَ خَبَرُ «المحلّة»(*)..

«أمّ الزين» في قاع الغرفة الغربيّة مُمَدَّدَة على حصير تصرخ، والقابلة تضع الماء السّاخن قريباً من العَتبة...

جحافل الجيش تتجمّع في السّهول المجاورَة.. النّساء يُغلقن الأبواب والنّوافذ.. طلقات بنادق وصهيل خيول...

في أعلى الرّبوة رجال على صهوات الجياد وآخرون على الأقدام يتجَمّعون.. مشهدٌ رَمَادِيّ يتّسع ويضيق والوجوهُ المذعورة في حركة متجمّدة.. الرّيح. صُراخ أمّ الزين.. في الغرفة «خَابية»(*) ضخمة تُغَطّيها قطعة قماش وحَجَرَةٌ ملساء عَليها إبريق صغير، وفي الحلق والأسفل لُطَخٌ من الزيت والغُبار...، وَحِذْوَها جِرَارٌ وأوانٍ للطبخ و«كوانين»(*) بأحجام مختلفة...

الوجه المذعور العرق البارد عيناها تنغلقان ثمّ تنفتحان صوب «الدكّانة»(*) في قاع الغرفة..

ـ هل يَجفّ الحلم وتموت الذكريات؟!

الغسّالةُ والكفنُ وعويلُ الأمّ وبكاءُ أخْتَيْها تعرض لحظاتٍ في خاطرها ثمّ تشتدّ آلامُها فتصرخ...